مظاهر تجديد الفكر الديني الإسلامي بين الانكفاء على الذات أو الاقتباس من الآخر

مقاربة جدلية تحليلية بين الاقتباس من التراث ورهانات الآخر

دكتور

خميس غربي حسين

العراق/جامعة تكريت/كلية الآداب

مؤتمر
كلية
الدراسات
الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لا شك أن أزمة التجديد في الفكر الإسلامي في الوقت الحاضر تمثَّلت في عدم فهم الواقع والتعامل معه، إما من حيث التشبث بالمثال وتخيل صورة رومانسية وهمية في التاريخ الإسلامي والهروب إليها من الواقع المعاش، ثم الاستدعاء الآلي للمثال السلفي في كل معالجة للواقع، أو اعتماد الواقع الغربي مثالاً للنهوض والتقدم، بصرف النظر عن الخصوصيات الثقافية والاجتماعية لواقعنا ؛ وبين هذا وذاك، حاول عدد من الدعاة الموائمة بين الانكفاء أو الأخذ، ظناً منهم أن ذلك الحل الأمثل للأزمة .

من هنا نتسأل كيف تعاملت الأطروحة الإسلامية من منظور مفاهيمي تاريخي مع إشكالية الاقتباس أو الانكفاء على الذات بشقيها الديني والسياسي لناحية تبني (أو عدم تبني) مشروع الإصلاح أو التجديد وفق سياقات الموروث الإسلامي أو الاقتباس من الحضارة الأوربية، لدرجة نجد أن الدعوة إلى التاريخانية كمنهج للتفكير صار من مسلمات الفكر الإسلامي، لعدم قدرته على تبني رؤية جديدة للواقع، في مقابل نمط سائدٍ في التفكير يعاني نقصاً فادحاً في الحس التاريخي .

إن مفردة الانكفاء على الذات التي وردت في العنوان، نقصد بها الدعوات التي تبناها عدد من رواد التجديد والداعية بالعودة إلى المرجعية التاريخية، متمثلة بالتراث والحضارة الإسلامية، والموروث الفكري الإسلامي، وهو ما يندرج تحت مفهوم التراث الإسلامي، الذي تناول صنوفاً من الإنتاج تنتمي التشريعي والعقدي والفقهي، وهو يتجلى في كل ما كتب في موضوع التجديد في النتاج الفكري الإسلامي . أما الاقتباس

فهو الإشارة إلى الدعوات التي أطلقها عدد من رواد التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر للأخذ من الحضارة والثقافة الأوربية والفكر الغربي .

وكما هو معلوم إن الاجتهاد والتجديد مفهومان أصيلان في ثقافتنا الإسلامية، لدلالة النصوص الشرعية المباشرة عليهما، مما كان يقتضي ويستلزم تفعيلاً دائماً لهما يواكب حركية وديناميكية المعرفة والمجتمع' ومما يلحظ على عدد من فقهاء المسلمين أنهم تنازلوا طواعية عن حقهم في ممارسة التجديد في الفكر الإسلامي، إذ هيمن الجمود والتقليد وهيمنة الصورية والتجريد على الفكر، حتى غدا الاجتهاد الذي هو أصل، فرعاً، والتقليد الذي هو فرع أصلاً . لذا فإن التجديد يعني : ((إعادة الدين بنصوصه وقواعده ومناهج الفهم والاستنباط فيه، إلى حالته الأولى التي أنزله الله عليها، وإزالة كل ما تراكم عليه من سمات ومظاهر، طمست جوهره، وشوهت حقيقته))[1] .

هنا تكمن إشكالية البحث الراهن وهو في ذاته محاولة لتتبع الأسباب التي جعلت المجتمع الإسلامي يعيش حالة من الركود والتدني في تفكيره، وعلى هذا المنوال، فالسؤال يطرح هنا، من أين سيأتي التجديد والإصلاح ؟، هل ننكفئ على الماضي السلفي، أم الأخذ من الآخر _ والآخر المعني هنا _ التجارب الإنسانية، ولا سيما الأوربية منها، أو محاولة المزواجة فيما بين الاثنين ؟، هذا السؤال المحوري والجوهري، وهو سؤال يعبر عن هاجس يفتش عن أجوبة تكون ذات أبعاد مركبة في كيف تكون مظاهر

١- عدنان محمد أمامه : التجديد في الفكر الإسلامي ، دار ابن الجوزي ، (د.ب/د.ت) ، ص٦

التجديد . وهذا ما سوف نتطرق إليه في صفحات هذه الدراسة إن شاء الله .

إن الدارس المتأمل لأزمة الفكر الإسلامي في الوقت الحاضر سيجد أنها تمثَّلت في عدم فهم الواقع والتعامل معه، إما من حيث التشبث بالمثال وتخيل صورة رومانسية وهمية في التاريخ الإسلامي والهروب إليها من الواقع المعاش، ثم الاستدعاء الآلي للمثال السلفي في كل معالجة للواقع، أو اعتماد الواقع الغربي مثالاً للنهوض والتقدم، بصرف النظر عن الخصوصيات الثقافية والاجتماعية لواقعنا .

من أجل هذا كله لا بدَّ أن تتضمن شريعة الإسلام ميزات وخصائص، تمكّنها من مواجهة تحديات اختلاف الزمان والمكان، وتبدُّل أحوال الإنسان، ولأن من سنة الله في خلقه أن يبتعدوا عن هذا الوحي، وتضعف فيهم أنوار النبوة مع تقادم الزمن وتباعده، إذ إنَّ البشرية بعد بعثة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) قد تعيش مئات السنوات قبل قيام الساعة، فقد اقتضت حكمة الله أن يعوض عن الأنبياء بالمجددين .

إن ما نشهده منذ عقد إنما هو مخاض، فهو لا يملك ملامح محددة أو نهائية، وإن مسألة الانكماش على الهوية والخصوصية ما عادت متحققة، وإن كانت هناك ظواهر تدل على مطلب (الطهورية)، وربما كانت ترتيبات النظام العالمي الجديد، والعولمة قد تحول دون الانفتاح الإيجابي، على عالمٍ تهيمن فيه وعليه قوىً غاشمةً .

هذا هو التجديد الحقيقي الذي نقصده في البحث، فليس التجديد بمعنى الخلق من العدم، بل الإضافة التي لا تكون صورة من الماضي بالتحديد، بل أنه صورة جديدة تتوافق مع متطلبات وحاجات العصر مع الأخذ بالاعتبار التطورات والمستجدات في حياتنا المعاصرة، وبالتالي فإن

الإبداعية هنا تتكئ على الرصيد الحضاري والثقافي للأمة وتختلف عن البدعة في الدين التي تعني الخروج عن العرف الديني السائد، وعما رسمه الشرع من قيم وتقاليد[٢] .

والاجتهاد والتجديد مفهومان أصيلان في ثقافتنا الإسلامية لدلالة النصوص الشرعية المباشرة عليهما، مما كان يقتضي ويستلزم تفعيلاً دائماً لهما ؛ يواكب حركية وديناميةالمعرفة والمجتمع[٣]، ويرى الأستاذ (سعيد شبار) أن المسلمين تنازلوا طواعية عن حقهم في ممارسة التجديد في الفكر الإسلامي بقوله : ((لكن للأسف خضعنا قديماً وحديثاً لمنطق الاغتيال ؛ إذ هيمن الجمود والتقليد وهيمنة الصورية والتجريد على التداول التاريخي للمفهومين، حتى غدا الاجتهاد الذي هو أصل فرعا، والتقليد الذي هو فرع أصلا[٤] .

إلا أن المسألة الشائكة في موضوع التجديد، هي علاقة التجديد بالدين، ولا نعني به الدين الإسلامي على حقيقته مبادئ أخلاقية سامية، ولكن تلك الممارسات السلطوية التي تغلف الدين لتفرض فكراً معيناً ضد التحرر، والانعتاق وروح الإبداع والتجديد، ولأن في العالم الإسلامي ممارسات

٢- حسن الجيلاني : الإبداع بين الدين والسلطة ، بحث منشور في مجلة الفكر العربي ، إصدار معهد الإنماء العربي ، العدد / ٨٨ ، السنة، ربيع / ١٩٩٧م ، ص٣٤ .

٣- سعيد شبار : الاجتهاد والتجديد وأصول الفقه في فكرنا المعاصر ، بحث منشور ضمن كتاب الإحياء ، الرابطة المحمدية للعلماء ، ط١ ، (المغرب/٢٠١٣م) ، ص١٤ .

٤- الاجتهاد والتجديد وأصول الفقه في فكرنا المعاصر ، ص١٤ .

فكرية تبناها عدد من رجال الدين والحكام ضد رواد التجديد بدعوى الخروج عن الدين، أو الزندقة، أو الكفر .

إن هذه الممارسات تحد من عملية التجديد التي هي أصل عملية الإبداع، وتشلها، وتحبطها، وهذه الممارسات تعمل على تشجيع فكر إتباعي، رجعي، يحارب كل فكر تجديدي إبداعي خلاق[٥]، وهو ما وقع للترابي إذ أنه تعرض لأنواع من التعنيف والمحاصرة والتقريع بسب فكره التنويري التجديدي المعاصر الذي لا يروق لكثير من الحكام، وعدد غير قليل من رجال الدين .

إن الحكومات التي تدعي أنها حكومات دينية تحارب التجديد ولا تمنح رواده فرصة للتعبير عن أفكارهم، لأنها تخشى من التجديد وتخافه وتعلم أنه القوة الفكرية التي تهز عروشها بدون الحاجة إلى السلاح، وهي تقنع العوام بحجج واهية منها أن الأولين لم يتركوا للقادمين شيئاً إلا وتطرقوا إليه ووضعوا الشروح والحواشي له، ونظراً لأنه لا شيء يوقظ الشعوب غير العلماء المجددون، لذلك تحارب هذه النخبة من المجتمع[٦] .

إن أهمية هذا الموضوع الحيوي تنبع من الواقع الذي يعيشه الإنسان المسلم، فقد تعددت أمامه الخيارات، واختلفت الرؤى والأحكام، والكل ينادي هذا هو رأي الإسلام،فمن الأكفاء على الذات وإتباع أثر السلف خطوة بخطوه إلى التسليم بما عند الغرب من آراء فكرية جاهزة، إلى فريق يحاول الموافقة بين التراث والأخذ من الآخر، وهم إذا ما حسبوا مع الفرقين السابقين قليلون، من هنا جاء هذا البحث محاولة لتتبع مظاهر التجديد

٥- حسن الجيلاني : الإبداع بين الدين والسلطة ، ص٣٤ .

٦- حسن الجيلاني : الإبداع بين الدين والسلطة ، ص٣٥ .

في الفكر الإسلامي وبيان الاتجاهات التي رسمها الفكر التجديدي، وسوف نعرج في هذا البحث على دراسة محاور التجديد بين الأخذ من التراث أو الاقتباس من التجارب الإنسانية ولا سيما الأوربية منها .

لقد اقتضت طبيعة الدراسة تقسيمها على تمهيد وثلاثة مباحث سبقتهما مقدمة ثم خاتمة، أما المقدمة فقد تضمنت الأفكار العامة مع الإشارة إلى أهمية البحث، وتأشير الفرضية التي ننطلق منها فضلاً عن تحديد إشكالية البحث، أما التمهيد فقد كان توطئة قبل الدخول في تفاصيل الموضوع، ودرسنا في المبحث الأول الدعوات إلى التجديد عن طريق الأخذ من التراث والاعتماد على مقولات السلف الصالح وهذا الأمر كثيراً ما نجد له رواد في حركة التجديد في الفكر الإسلامي، أما المبحث الثاني فكان مضمونه الإشارة إلى الدعوات التي تبناها عدد من المجددين وكانت فحواها أن تكون التجربة الأوربي في الإصلاح منهجاً للتجديد، أما الخاتمة ففيها رصد لأبرز نتائج البحث وتوصياته .

التمهيد

لقد ظهر في تاريخ المسلمين الطويل مواكب متلاحقة من دعاة التجديد، وكان لفكرهم دورٌ رائد في مواصلة العطاء وتصحيح المسيرة، سواء في ميدان العقيدة أو في ميدان الفكر والتشريع، ولم يضِق صدر الإسلام بهؤلاء، وإنما ضاق صدره بما أثقل كاهل الفكر الإسلامي من انحراف وجمود وتقليد، حتى أننا أصبحنا نُعطي للتاريخ قداسة، وللتراث عصمة، وهذا منهج لا يستقيم مع منهج الإسلام الذي يرفض القداسة والعصمة، ويجعل أمر الفكر في موطن رعاية العلماء المؤتمنين على مواصلة العطاء، لكي تظل شعلة الفكر متوهجة ملهمة، تنير الطريق، وتعبر المسالك أمام قوافل المؤمنين برسالة الإسلام .

إن تقبل الفكر المعارض والحوار الهادي من سمات الإسلام، فقد حفل تاريخ المسلمين بوجود المعارضة سواء كانت على مستوى الأفراد أو ظهور الفرقة التي كانت بعض آراءها تصل إلى محاولة لهدم الدين الإسلامي، لكن المسلمين تقبلوا هذا الفكر المعارض لاعتقادهم أن من علامات ضعف الدولة إرهاب المخالف والحجر على أفكاره، ومن علامات قوتها السعة في الفهم وتقبل رأي المخالف، ويعد من مفاخر الدولة الإسلامية وجود الزنادقة وأهل الكفر والإلحاد، ((وقد تحملت الحياة الفكرية والعقلية عبث عمر بن أبي ربيعة، وتهجم أبن الراوندي، وتحملت تأملات أبي العلاء وحيرته وشكوكه، وتحملت شعر أبي نواس ومجونه،

وأحاديث الجاحظ وتفضيل بشار بن برد لإبليس على آدم، بل تحملت ما هو أبعد من ذلك كآراء القرامطة والباطنية والزط))[٧] .

أكثر من ذلك فإن التجديد الفكري والإصلاحية الإسلامية المعاصرة تعد حركة تنويرية تصدر عن وعي عميق بالصيرورة والتقدم التاريخيين، وفي مثل هذا المعنى أشار الفاسي، بقوله : ((والذي ينظر في تاريخ الحركات العامة في الدنيا كلها ؛ يجد أنه لم تقم ثورة مفيدة في بلد ما إلا سبقتها دعوة للرجوع إلى الماضي البعيد، ذلك أن الرجوع الذي يظهر في شكل تقهقر إلى الوراء هو نفسه تحرر كبير من أشياء كثيرة وضعتها الأجيال العديدة والعصور المختلفة، وإن التحرر منها وإزالتها من الطريق يفتح أفقاً عالياً يهدي السائرين للغاية الصحيحة التي يجب أن يوجهوا أنفسهم إليها))[٨] .

إن تغيير الإسلام يعني نسخه أو مجيء أو تقديم بديل عنه، وهذا غير ممكن، كما يرى الأستاذ عبد الكريم زيدان : ((لأن القاعدة الشرعية في النسخ أن يكون الناسخ بقوة المنسوخ، وحيث إن الإسلام وهو دين من عند الله تعالى، وهذا يستلزم أن يبعث الله تعالى رسولاً يأتي بهذا الدين الجديد من عند الله تعالى، وهذا غير ممكن مطلقاً))[٩]، لأن جل شأنه أخبرنا في محكم كتابه بأن لا نبي بعد الرسول محمد (صلى الله عليه

٧- محمود الشرقاوي : التطور روح الشريعة الإسلامية ، المكتبة العصرية، (بيروت/١٩٦٩م) ، ص٩٣ .

٨- علال الفاسي : التيارات الأيدلوجية في العالم العربي ، إعداد : عبد العلي الودغيري ، مطبعة النجاح ، ط١ ، (الدار البيضاء/٢٠٠٠م) ، ص١٥٥ .

٩- عبد الكريم زيدان : نظرية التجديد في الفكر الإسلامي ، لا. مط ، (د.ب/د.ت) ، ص٢ .

وسلم)، قال تعالى : ((ما كن محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين))[١٠]

وكلمة تجديد، تعني تكوين ظروف الاستمرارية، وتجديد الفكر يعني استمرارية الإيمان بصلاحية ذلك الفكر، لكي يكون أداةً لتوجيه الإنسان وهدايته، وفق هذا المنطلق يكون التجديد مطلباً ملحّاً، لأنه يمثل العلاقة بين الإنسان والفكر، فإذا توقفت عوامل التواصل بين الإنسان والفكر جمد الفكر وتراجع دوره، والتجديد هو أداة التواصُل، لأنه يعطي للفكرة بعدها الزمني، عن طريق ربط تلك الفكرة بالرؤية المتجددة التي تمنحها القدرة على الاستمرار والبقاء والصمود في وجه التطورات المستحدثة التي يفرضها الواقع الجديد، وتألفها الأجيال اللاحقة .

ونؤكد على هذا الأمر بالقول : إننا بحاجة إلى إقامة الدليل على أهمية التجديد بالنسبة للفكر، فالتجديد هو وسيلة الاستمرار، لأن العقل البشري من حقه أن يباشر مسؤولياته في فهم الظواهر الإنسانية، وأن يفسرها بما يراه ويعتقد، وهو يمارس بذلك صلاحيات مشروعة، وليس من الإنصاف أن ينكر جيل سابق على جيل لاحق حقه في ممارسة رؤيته المتجددة لقضاياه الفكرية . والتجديد كما يرى الغزالي، في الفكر الإسلامي وليس التجديد في الإسلام، ((لأن الفكر الإسلامي يتمثل فيما أنتجه المسلمون من علوم ومعارف واجتهادات على طريق تفسير الإسلام وفهمه وشرح أحكامه، أما الإسلام فهو الوحي الإلهي في الكتاب والسنة الثابتة))[١١] .

١٠- سورة الأحزاب ، آية : ٤٠ .

١١- محمد الغزالي : ليس من الإسلام ، دار القلم ، ط١ ، (بيروت/١٩٩٧م)، ص١٣٥-١٣٦ .

المبحث الأول : بين الموروث والاقتباس .

إن طبيعة البواعث والأرضيات والسياقات الذاتية والموضوعية والفكرية التي حرضته على تبني فكرة تجديد الأسس الفكرية والفلسفية للتفكير الديني، وتحديد طبيعة المهمة الفكرية التي أراد النهوض بها، والتي يفترض أن ينهض بها المفكر المسلم في العالم الحديث، وحسبنا أنّ الواقع المتغيِّر والحوادث المستجدة وسرعة التطور التي نعيشها بشكل يومي، تجعلنا في مواجهة دائمة ومباشرة مع ضرورة التجديد في الفكر الإسلامي وهذا لا يعني أنّ الضرورة تبيح لنا فتح الباب على مصراعيه أمام كل دعوة للتجديد أو كل منهج يهدف إلى التجديد، بل على العكس، فان تزايد تلك الأهمية تتناسب طرديا مع تزايد الحاجة إلى ضبط عملية التجديد وتقنينها بالطريقة التي تجعل من التجديد وسيلة تمكِّن الفكر الإسلامي من استيعاب كل مجالات الحياة، وتجعل الاجتهاد أداة لإخضاع الواقع للشريعة، وحينها لا يكون التجديد هدفا بذاته، بل وسيلة لبلوغ الغاية التي يحقق الدين من خلالها مقاصده وأهدافه .

ونحن نرى أن جمود العقل الإسلامي من فكرة التجديد، كان سبباً لظهور مشكلات جوهرية فيما يتعلق بتوالي المتغيرات في كل عصر، ذلك أن المجددين من الصحابة والتابعين اضطروا بعد وفاة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى استنباط أحكام وفتاوى[١٢]، سواء كانت في المجال العقدي أو العلمي، وطوروا هذه الأحكام ووسعوها التماساً للمصالح المتجددة، لكن الترابي يعيب على الفكر الإسلامي أنه سد باب الاجتهاد

١٢- حسن الترابي : تجديد الفكر الإسلامي ، دار القرافي ، ط١ ، (المغرب/١٩٩٣م) ، ص٢٦ .

عهوداً طويلة، والواقع أنه لم يسد باب الاجتهاد بحجة في العقيدة أو في الشريعة، وإنما انسد بحكم أطوار الفكر الإسلامي وأحوال الحضارة الإسلامية(١٣) .

والحياة التي نعيشها في الوقت الحاضر ذات وقع سريع وهي تميل إلى التغيير والتجديد، ولا مكان لأمة تبقى منكفئة تراوح محلها، لذا فإن مسألة التجديد في الفكر الإسلامي أمر لا مفر منه، وان وجودنا في عالم تتقاذف أممه وتتدافع إلى الأمام، وهنا يتبادر السؤال المهم والمصيري ؛ أنمضي قدماً، أم نبقى مكننا، أم ننتكس إلى الوراء ؟ أنمزج الدين بالدولة، فنفقد الدولة، ونفقد الدين ؟ أم يعمل كل منهما في ميدانه ؟ فنربحهما معاً، ونربح أنفسنا ومستقبلنا(١٤) .

والفكر مهما جمد فإن الحياة لا تتوقف، والدليل على ذلك أن الفكر الإسلامي مر بأطوار وأحوال ولكنه بقى حياً بين معتنقيه، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل غزتنا الحضارة الغربية بأفكارها ومناهجها المتغيرة والمتطورة ذات الوقع السريع أحدثت في واقعنا صوراً جديدة ما تزال تتكاثف كلما تطور المجتمع وتعقدت أحواله(١٥) .

ولعل ما يمكن التركيز عليه أن الفكر لا ينمو بالتقليد، وسيادة منهج التقليد في مجال الفكر مؤشر واضح على تخلُّف الأمة، وعجزها عن العطاء، والتجديد لا يعني التغيير، وإنما يعني الإضافة المتميزة التي تطبع الفكر بطابع عصره، لكي يكون وليداً شرعياً للمجتمع، يحمل قسمات ذلك

١٣- حسن الترابي : تجديد الفكر الإسلامي ، ص٢٦ .

١٤- خالد محمد خالد : من هنا نبدأ ، دار الخانجي ، (القاهرة/١٩٥٨م) ، ص١٥١ .

١٥- حسن الترابي : تجديد الفكر الإسلامي ، ص٢٦ .

المجتمع، ولا يمكن لمجتمع حي أن يتخلى عن مسؤوليته في إبداء رأيه فيما يواجه من قضايا فكرية .

إن فرض الغزو الفكري الغربي نمط حضارته على قطاعات عريضة من النخب المثقفة في ديار الإسلام، ولا سيما في علاقة الدين بالدولة والاجتماع والعمران، والذي خلف في واقعنا الفكري قطاعاً متغرباً يرى أن المرجعية في مشروعنا النهضوي هي للخيار الحضاري الغربي، وليست للإسلام، فكان هذا الانقسام الذي يمثل واحدة من قضايا أزمة الفكر الإسلامي المعاصر .

من هنا، يرى (محمد الصادق عفيفي) أن هناك ضرورة لأن يفهم الإسلام على حقيقته، وأن نتناوله باعتباره وحدة متماسكة، ينظم العقيدة والعبادة، والسلوك الأخلاقي، والاجتماعي، والتشريع الحضاري، وأن نبتعد عن تلك المتاهات، وتلك المصادمات التي جرى وراءها علماء الكلام حتى كفر بعضهم بعضاً[١٦] .

إنّ الفكر الديني هو تصور مستقى من الإسلام، أي أنه نتاج لفهم المفكر للمصادر الإسلامية المقدسة عبر الأدوات الشرعية للفهم، وهذا الفهم الذي يبذل فيه المفكر كل جهده ليكون النتاج الفكري أكثر قربا من مراد الشارع المقدس له علاقة أيضا بطبيعة فهم المفكر للواقع، ومن هنا فان الفكر المُنتَج يتأثر بثقافة المفكر ومعرفته بالعلوم ذات العلاقة بموضوع الفكر، فضلاً عن بيئة المفكر واستجابته لعوامل الاختلاف ونوعيته وإحاطته

١٦- الفكر الإسلامي مبادئه ، مناهجه ، قيمه ، أخلاقياته ، مكتبة الخانجي ، (القاهرة/١٩٧٦م) ، ص٩ .

بجوانب الموضوع وهذه العوامل متغيّرة من مفكر لآخر، الأمر الذي يؤدي إلى بروز نوع من الاختلاف بين الاستنتاجات الفكرية المختلفة .

لقد دارت حوارات وسجلات بين المفكرين الإسلاميين حول مسألة التجديد في الفكر الإسلامي فهناك من يدعو إلى اعتماد الموروث الإسلامي ويرى فيه السبيل الوحيد للإصلاح، وقد خلق هذا لغط وردود فعل بين دعاة التجديد في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى أن الحقبة الزمنية المذكورة هي البداية للاصطدام الحقيقي بالغرب الذي جاء ليستعمر البلاد بجيوشه وآلته العسكرية فأصبح الصدام وجهاً لوجه، وقد أدرك المفكرون الخطر الذي يتهددهم وتبددت أوهام عاشوا عليها زمناً، الإسلام خير الأمم وهو يمتلك مفاتيح العلم والتطور، يمتلك أعظم حضارة أبدعتها البشرية وهو معلم الشرق والغرب، وإن ما عندهم من علوم ومعارف تغني عن علوم الآخر، وأن الاقتداء بالسلف من أعظم الفضائل، وأن مشكلة المسلمين تكمن في التخلي عن التراث وأعمال السلف الصالح، وان العودة إلى السلف هو العودة إلى النبع الصافي الذي كان سبباً في ازدهار حياة المسلمين وتطورهم في السابق، وإن صلاح أمر المسلمين لا يتم إلا بالعودة إلى الموروث، ورفض وتطويق كل ما جاء من الآخر، ونعني به الحضارة الغربية .

في مقابل ذلك هناك فريق من دعاة التجديد يرى أن مواكبة العصر والاقتباس من الآخر هو الحل الوحيد للمشكلات الحضارية والاجتماعية والفكرية التي يعاني منها المسلمون، وأن الحل الأمثل هو نقل التجربة الأوربية إلى واقعنا المعاصر، وعلى هذا فقد غرق هؤلاء في أحلام تصل في بعض الأحيان إلى الطوباوية، عن مجتمع جديد متكامل يرفل بالتطور والتقدم العلمي والثقافي والسياسي والاقتصادي والعلمي . إن هذه

التصورات وإن كان فيها مجال للاعتقاد والتصور إلا أن أصحابها بالغوا في رسم الصورة الإيجابية للاقتباس من الحضارة الغربية، لهذا لم يكون التراث في اعتقادهم منبع الحكمة والمجال المناسب لتجديد الفكر الإسلامي، وسعوا جهدهم لاستيعاب العلوم والمعارف الغربية وموائمتها مع تعاليم الإسلام و حتى لو تطلب ذلك تحوير النص الديني ليتوافق مع أطروحاتهم، وكان حال هؤلاء لا يختلف كثيراً عن أولئك الذين دعوا إلى الانكفاء على التراث وعدم الأخذ من الآخر، فكليهما وقع في مطب التطرف باعتقاده أنه يمتلك الحل الواقعي والحقيقة المطلقة في دعوته .

وبين هذين المنظورين يمكن أن نلتمس حلا لهذه الإشكالية، وهذه الدعوة لا تخلوا من الاقتباس أيضاً، والاقتباس هنا، التجربة اليابانية الصاعدة التي استطاع روادها نقل اليابان وفي غضون عقود من أمة مدمرة منكفئة على ذاتها إلى دولة عصرية متطورة علمياً وتكنولوجياً واجتماعياً واقتصادياً وذوقياً وحضارياً، ولم يتحقق هذا إلا بالموائمة والمزاوجة بين التراث والفكر الياباني ومعطيات الحضارة الغربية الحديثة، بحيث يكون الأخذ والاقتباس بالطريقة التي تبقى معها الذات والموروث الياباني دون أن تذوب الشخصية اليابانية في الحضارة الغربية، وهذا هو الذي جعل من اليابان أمة متحضرة ذات خصوصية قومية، تجمع بين الحفاظ على إيجابيات التراث ومواجهة تحديات العصر .

من هنا يمكن القول إن الشعوب الإسلامية بحاجة إلى حشد طاقاتها ليكون تقدمها متسقاً مع مبادئ الدين الإسلامي الحقيقية، ليس باعتبارها وهماً ميتافيزيقياً، بل وجوداً موضوعياً ((بمعنى الالتزام بمنطق العصر وعلومه، واتساقاً مع قيمه ومعاييره الأخلاقية لتطبيق هذا الحق في واقع حياته العملية، وهذا يعني أن ذاتية المجتمع التي يبحث عنها الآن إنما

تتحقق بعد اكتشاف إيجابيات الماضي، من خلال تفاعل الماضي مع الحاضر في ضوء فهم علمي وصولاً إلى مستقبل نابع من جهد إبداعي لأبناء هذا المجتمع، ومن خلال هذا الاتصال التاريخي يكون الاتساق الأخلاقي أيضاً))[١٧]

١٧- شوقي جلال : التراث والتاريخ ، ص١٤٤ .

المبحث الثاني: العودة إلى التراث .

من المسلم به أن التراث الإسلامي يشكل ركيزة أساسية ومهمة في أي محاولة للتجديد، ذلك أن التراث بما يحويه من إجابات شافية وعلمية ذات منهج منظم وقويم لكثير من التساؤلات التي غالباً ما تظهر بأبعادها الفكرية، وكل محاولة مهما كانت متواضعة للولوج لا بد لها من العودة إلى التراث، لا بل أننا لنجد العديد من المفكرين ورواد التجديد قد اعتمد بصورة مباشرة على التراث الفكري الإسلامي في بناء المنظومة الفكرية للتجديد . إننا مدعون إلى حفظ كل تراثنا حفاظاً على ذاكرة الأمة، والاستفادة منه على النحو الذي يضيف أعمارهم إلى أعمارنا، وفي نفس الوقت مدعون إلى أن نحّيي هذا التراث في واقعنا المعاصر ما لديه صلاح وصلاحية كي يزامل إبداعنا الجديد في تحقيق المصالح الشرعية المعتبرة لأمة تزاحم الأعداء وتواجه التحديات وترنو إلى مستقبل أكثر إشراقاً في كثير من صفحاته[١٨] .

لذلك فإن مكونات التراث الإسلامي فيه من الايجابيات ما يمكن تطويرها والإفادة منها، كما أن هناك بعض السلبيات التي قد تشكل معوقات أو عقبات إذا لم يحسن فهمها بعلمية وفق البعد الزمني لها، والتراث قد يكون دافعاً إذا خططنا له بدقة ورسمنا سياسات الاتجاه السليم نحوه[١٩].

من هذا المنطلق يمكن تقييم الصراع الذي يحتدم على الساحة الفكرية الإسلامية بين الإسلام وميراثه الثقافي، وبين الاستلاب الغربي المتمكن

١٨- محمد عمارة : أزمة الفكر الإسلامي المعاصر ، ص٢٣ .

١٨- طه جابر العلواني : إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات ، الدار العالمية للكتاب ، ط٢ ، (الرياض/١٩٩٤م) ، ص٥٣ .

من مؤسسات الفكر والإعلام والتربية والتعليم داخل المجتمع الإسلامي[٢٠]، وفق منهج يقوم على النقد والتقويم، والأخذ والاقتباس بما يناسب المرحلة والظروف الاجتماعية والسياسية .

وعلى هذا الأمر، يرى الدكتور (محمد عمارة) إن خروج الفكر الإسلامي من أزمته وانعتاق الأمة الإسلامية من مأزقها الحضاري لا يتم إلا من خلال تجديد الفكر الإسلامي، وهذا التجديد يشكل إسهاماً مطلوباً وفاعل لترشيد الخيارات الحضارية الأخرى[٢١]، لأن الإسلام الناهض المتجدد هو المرشح اليوم لممارسة المهمة التي نهض بها عند ظهوره، لذلك لا غرابة أن تتصدر مشكلة التجديد بين الأخذ من التراث أو إتباع التجربة الغربية أولويات رواد التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر . وأن الاستقطاب الحاد بين قطبي الانكفاء على التراث أو الأخذ من الآخر، والسجال المستعر بينهما هو الذي أضعف من إمكانية إبداع صيغة إسلامية جادة للتجديد تعتمد على التوازن الفعال والمتمازج بين الأصالة والمعاصرة[٢٢] . وإن ردود الفعل على بعض الدعوات التي طالبت بالتجديد لم تكن من جمود

١٩- طه جابر العلواني : إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات ، ص٥٥ .

٢٠- أزمة الفكر الإسلامي المعاصر ، دار الشرق الأوسط ، (القاهرة/١٩٩٠م) ، ص١٠ .

٢١- جمال سلطان : جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث ، مركز الدراسات الإسلامية ، ط١ ، (برمنجهام/١٩٩١م) ، ص٦٣ .

ومعارضة للتجديد، وإنما رداً على التغريب الذي تسلل من خلال شعار التجديد[٢٣] .

من المعلوم أن رواد الفكر الإسلامي المعاصر وهم يتلمسون السبيل لبناء منظومة فكرية في التجديد كانوا أمام خيارين، أحدهما : تيار الانسحاب إلى الماضي بما يكتنز هذا الماضي من مفاتيح رئيسة للتجديد تتمثل بالعودة إلى التراث بحثاً عن الهوية الحقيقية للإسلام، ومن ثم، البحث عن الحلول الناجعة لأبرز المشكلات الحضارية التي تواجههم . لقد عاش هؤلاء أسرى وهم تضخم الأنا، ودونية الآخر، وهو وهم أفضى تاريخياً إلى خلق هوة فاصلة، تقطع الطريق للأخذ أو الاقتباس من الآخر[٢٤] . وعدم الأخذ أو الاقتباس أمر غير مسلم به لا ثقافياً ولا فكرياً، لأن أي أمة مهما كان أسهمها في بناء سلم الحضارة الإنسانية لا بد لها أن تقتبس من الحضارات الأخرى، وهذه البديهة أمر لا مفر منه

لا ينكر أن قيام الدولة العربية الحديثة رافقه تشتت في الرؤى واضطراب في بعض المفاهيم، ذلك أن العرب وهم يتلمسون الطريق لبناء كيانهم المرتقب كانت خطواتهم تتعثر، ومع قيام الدولة العربية الحديثة قطعت عدد من الأقطار العربية صلتها بالمنظومة الإسلامية في مجال التشريعات والنظم والقوانين، ووثقت بالمقابل ارتباطها المرجعي بالمنظومة الغربية، المر الذي ساهم في تراجع الفكر الإسلامي وتغليب مفهوم الهوية والتشبث

٢٣- منير شفيق : الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات ، دار القلم ، ط١ ، (الكويت/١٩٨٦م) ، ص٦٧ .

٢٢- شوقي جلال : التراث والتاريخ ، دار سينا للنشر ، ط١، (القاهرة/١٩٩٥م) ، ص٦ .

بهذا المفهوم وإظهار التخوف عليه باستمرار وإعطائه درجة عالية من الأولوية[٢٥] .

إن مفردة الأصالة أو الحفاظ على الذات الثقافية كما يصفها جلال شوقي هي : ((الإيمان بأن التراث ينطوي على عناصر تمثل محور بنية الشخصية القومية في اتصالها التاريخي، وأن الملائمة لا تعني الانفصال أو النفي الكامل للتراث، وهو أمر مستحيل، لأنه يعني نفياً للذات، وإنما المقصود هو الانتماء الواعي للتراث، وملاءمته من خلال اكتشاف عناصره الإيجابية في إطار من التأويل الإبداعي وهو ما يتأتى تلقائيا من خلال الانغماس في مواجهة تحديات الواقع بأدوات العصر وفقاً لرؤية مستقبلية أو مشروع قومي يحقق من خلاله المجتمع وجوده الذاتي))[٢٦] . أما مفردة المعاصرة كما أشار إليها محمد عمارة، ((فهي تعني : المفاعلة، أي التفاعل بين الإنسان، أو الثقافة، أو الحضارة، وبين العصر، أي الزمن المعيش، فإذا تمايزة الأمم في حضارتها لتمايز هذه الثقافات، فإنها لا بد وأن تتمايز في العصر الذي تعيش فيه، فللأمم المتمايزة في الهويات الثقافية (معاصرات) متميزة وليس هناك في الواحد معاصرة واحدة لكل الأمم والثقافات والحضارات))[٢٧] .

٢٣- زكي الميلاد : من التراث إلى الاجتهاد ، المركز الثقافي العربي ، ط١ ، (الدار البيضاء/٢٠٠٤م) ، ص٦ .

٢٤- شوقي جلال : التراث والتاريخ ، ص١٢٣ .

٢٧- أزمة الفكر الإسلامي المعاصر ، ص٢٥-٢٦ .

المبحث الثالث : الاقتباس من الآخر .

إن التساؤلات حول مدى اعتبار التجديد نقيضاً للأصالة أو تنكراً للسلف، هو بحد ذاته موقف رافض للاجتهاد حول الفكر الإسلامي المعاصر، لأنه يعيق صفة المعاصرة داخل الفكر الإسلامي ويمنعه من التقدم نحو الإسهام في مساقات التغيير والتطور المطلوبان في الفكر الإسلامي واستشراف ما بعد الحداثة الجارية داخل الفكر الإنساني عامةً باعتبار أن الفكر الغربي أحد عناصر الانطلاق في تشكيل وجهة كلية للاجتهاد يضاف إلى عنصري التراث والنص[٢٨] .

لقد اختلفت الآراء بين المفكرين الإسلاميين في الأسلوب والطريقة التي يجب الاقتباس بها من الغرب، فبعضهم اعتبر ذلك بمثابة التشويه للدين ومحاولة تحريفه، يقول عدنان محمد أمامه : ((شهد التاريخ الإسلامي عقب حقبه المتعاقبة من قام بمحاولة تشويه الدين وهدمه وتحريف نصوصه ومعانيه، إلا أنَّ أشرس تلك المحاولات وأعتاها هي تلك التي شهدها القرن العشرون، ولا تزال قائمة حتى الآن، حيث تواطأت قوى الكفر على اختلاف عقائدها وأهوائها ومصالحها على حرب الإسلام والقضاء على أهله وإلغاء أحكامه وتعاليمه، وحين أدركوا استحالة إلغاء الإسلام وإبادة أهله عن طريق القوة عمدوا إلى حرب من نوع آخر تمثلت في الغزو الثقافي وإشاعة المفاهيم والقيم الغربية ليحلوها محل الإسلام، وكان أخطر ما فعلوه، أو تسببوا بحصوله استخدامهم لحفنة من أبناء المسلمين يتسمون بأسماء المسلمين، ويتكلمون بألسنتهم ويلبسون

٢٥- محمد المستيري : جدل التأصيل والمعاصرة في الفكر الإسلامي ، منشورات كارم الشريف ، ط١ (تونس/٢٠١٤م) ، ص٤٩ .

مسوح العلماء والمجتهدين ويتظاهرون بالشفقة والإخلاص والحرص على مصلحة الدين، وإذا بهم أشد فتكاً من أعداء المسلمين الخارجيين))[٢٩] .

في مثل هذه الأجواء الفكرية سارت حركة التجديد في العالم الإسلامي، فمن الدعوة إلى اعتماد المثل الغربي في التجديد إلى التعصب المقيت والذي يرفض كل محاولة للأخذ والاقتباس من الآخر، بل أننا لنجد الأوصاف والأقوال النابية تلحق بكل من يحاول الاقتباس من التجربة الغربية، وهذا برأينا راجع إلى ضيق أفق البعض من رواد الفكر الإسلامي وانغلاقهم على الواقع، أو تحقيقاً لمصالحهم الذاتية، وتطلعاتهم الفردية، إذ أنهم دائماً يحاولوا البقاء على الوضع القائم لأن أي تغيير أو تجديد يضر بمصالحهم .

وهم أولئك يعتقدون أن الأصالة أو الحفاظ على الشخصية والثقافة الإسلامية هو التمسك بالتراث فقط، لأنه ينطوي على عناصر تمثل محور الشخصية الإسلامية في اتصالها التاريخي، وأن أي انفصال عن التراث يعني النفي الكامل عن الإسلام، وعلى هذا فهم يعتقدون ملائمة الوقائع المعاصرة مع التراث تكون من خلال استكشاف عناصره الإيجابية في إطار من التأويل الإبداعي، وهو ما يتأتى تلقائياً من خلال الانغماس فيه[٣٠] .

على أن المفكرين الإسلاميين بدءوا يتخلَّون عن هذه الفكرة، أو عن هذا التحديد للإشكالية منذ الثلاثينيات من القرن العشرين، وليس بالوسع القول إن هذا التخلي سببه عجز المسلمين عن التقدم ؛ بل الأمر أعقد من ذلك، فالتقدم عند النهضوي الإسلامي يستندُ في مفهومه إلى مقاييس

٢٩- التجديد في الفكر الإسلامي ، دار ابن الجوزي ، (د.ب/د.ت) ، ص٧ .
٣٠- جلال شوقي : التراث والتاريخ ، ص١٢٣ .

غربية، وبتلك المقاييس يمكن القول إن المسلمين كانوا يتقدمون، لكن مرّةً أخرى ؛ فإنه بالمقاييس الغربية أيضاً، ما كان ذلك كافياً ولا شافياً، بدليل عدم القدرة على الوصول إلى حلٍ لإشكالية المسلمين مع الغرب من ضمن التركيبات العالمية التي كانت سائدةً آنذاك، والتي تركت أثراً عميقاً في وعي المسلمين، وبالتالي في تكييفاتهم للأوضاع القائمة في العالم الإسلامي . وقد بلغت تلك التأثيرات إحدى ذراها في ضياع فلسطين من جهة، وعدم نجاح التجربة الباكستانية من جهة ثانية .

فما عادت مسألة التقدم كافيةً لمعالجة الإشكال، وصار مطلوباً «تحقيق الذات» للنضال المباشر، وبإعادة بناء التصور، وبتحديد خصائص ذلك التصور، سبيلاً لنضال من أجل إنجازه على أرض الواقع. فعدمُ الارتياح إلى الترتيبات والتركيبات السائدة في العالم على كل المستويات، أنتج وعياً مزدوجاً : الانزياح باتجاه التاريخ من جهة، وعدم الاطمئنان في الوقت نفسه إلى الطهورية الكاملة لذاك التاريخ، ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه المفكرون الإسلاميون يُرجعون استكشافات النهضويين للتاريخ الإسلامي، كانوا في الوقت نفسه يبتعدون عن أفكارهم ومسلّماتهم باعتبارها ذات مرجعية غربية . ومن هنا كان لجوؤهم بإلحاح تأصيلي إلى النص نفسه، وبذلك اكتمل خطاب الحتميات لدى الإسلاميين في الوقت الذي كان يكتمل فيه ذلك الخطاب لدى القوميين و الاشتراكيين في تناغم غير واع مع السائد عالمياً في الحرب الباردة . وهكذا فالبنية الأساسية لوعي العقائديات والحتميّات لدى سائر التيارات الفكرية والسياسية التي بدأت تظهر على الساحة الإسلامية في الوقت الحاضر.

إن بناء موقف إسلامي في مواجهة الغرب فكرياً يجب أن يتم في ضوء الحقائق التالية : الحضارة الغربية بمعطياتها المادية والفكرية باقية

ومستمرة، وعلى هذا فإن الصراع على مستوياته الدينية والسياسية والفكرية لا يمكن إنكاره بأي حال من الأحوال ولا سيما بين فكرة التجديد بالاعتماد على التراث الإسلامي، أو الاقتباس من الغرب وهي إشكالية برغم أهميتها وتأثيراتها المختلفة إلا أن التعرض لها لا يخلو من الاختلاف الذي يصل في بعض الأحيان إلى التعصب والتطرف من كلا الاتجاهين – دعاة الانكفاء على التراث أو دعاة الاقتباس من الآخر – وحسب رأينا يمكن تلمس الحل المناسب، إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن الحضارات الإنسانية – أي حضارة – تقتبس وتؤثر وتأخذ، بل أن هذا صفة إيجابية ودليل على حيوية الحضارة .

ومن الحقائق المنظورة الأخرى التي يمكن تلمسها هي أن المواجهة الإسلامية مع الغرب لا تخلو من الحساسية وعند البعض الحساسية المفرطة، ذلك أن الصراع الفكري بين الإسلام والغرب قديم يرجع إلى بداية ظهور الإسلام ونشأته، وقد توج هذا الصراع بظهور الاستشراق والأدوار التي لعبها عدد من المستشرقين بسبب من تعصبهم الأعمى ومواقفهم السلبية من نبي الإسلام محمد (صلى الله عليه وسلم) والتاريخ والحضارة الإسلامية . ومن الحقائق الأخرى التي يجب أن نعلمها أن الآمال الخيالية التي يشير أصحابها إلى إمكانية القضاء المبرم على الاستشراق ومخاطره تكون بغلق الباب والتقوقع على التراث الإسلامي لاعتقادهم أن هذا الموروث قادر على حل المشكلات التي يواجهها المسلمون في الوقت الحاضر، وبين هذا القول وغيره نرى أن المواجهة الحقيقية والواقعية يجب أن تستند على التفكير المنطقي العقلاني، ولا تجنح إلى العاطفة المولدة للأفكار المستحيلة التحقيق، فضلاً عن ذلك فإن الاستشراق ((حركة فكرية

عقلية تواجه بالفكر والعقل الذي يدعمه الإيمان الصادق بالدين والثقة على قدرة الإسلام على المواجهة))[٣١] .

من هذا المنطلق فقد أشار الدكتور محمد خليفة حسن، إلى أن الفكر الاستشراقي قد ترك آثاراً سلبية على عدد من المفكرين المسلمين، وعمل على إثارة الشكوك لديهم لا سيما في العقيدة وفي القيم الدينية والحضارية المنبثقة من هذه العقيدة[٣٢]، ويبدو أن هذه الشكوك تولدت لدى هؤلاء بسبب اتصالهم بالغرب أما عن طريق الدراسة في الجامعات الغربية أو الذين تحقق لهم نوع من الاتصال بالغرب وحضارته ومؤسساته الثقافية، وقد تأثر هؤلاء بالثقافة العلمانية التي رأت أن فصل الدين عن الدولة هو الحل الأمثل لهم، مع فارق الاعتبار أن الإسلام لم يتحول إلى مؤسسة كهنوتية كما هو الحال في أوربا و وقد حاول هؤلاء نقل التجربة الغربية إلى المجتمعات الإسلامية، على اعتقاد منهم بأفضلية هذه القيم على القيم الإسلامية نتيجة للانبهار الشديد بحضارة الغرب وتقدمه العلمي والتكنولوجي والاعتقاد في عجز الحضارة الإسلامية عن استيعاب العلم الحديث بسبب ارتباط هذه الحضارة بالدين الإسلامي[٣٣].

إن ما نشهده منذ عقد إنما هو مخاض صعب ومصيري، فهو لا يملك ملامح فكرية إصلاحية محددة أو نهائية، وإن مسألة الانكماش على الهوية والخصوصية ما عادت متحققة، وإن كانت هناك ظواهر إيجابية في

٣١- محمد خليفة حسن : آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية ، دار عين للطباعة ، ط١ ، (القاهرة/١٩٩٧م) ، ص١٣٩ .

٣٢- آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية ، ص١٣ .

٣٣- محمد خليفة حسن : آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية ، ص١٣ .

الفكر الإسلامي يمكن استغلالها لصالح التجديد المنتظر . وقد لا تكفي ظواهر التغيير التي تحدثنا عنها للوصول إلى تبدل في رؤية العالم أي في عالم الثقافة، قد حدث. لكن الحتميات قد سقطت، ونحن نخرج من الأزمة، ونتجه للبحث عن إمكانياتٍ أخرى للتحقق والتحقيق .

وعلى هذا يمكن القول، إن تضارب الأجندة الخارجية مع الأجندة الداخلية بخصوص الشكل والوتيرة التي يجب أن يقوم عليها التجديد في العالم الإسلامي عموماً، خلق نوع من السجال الذي لم يفضي إلا لمزيد من الجدل العقيم، هذا من جهة، أما من جهة أخرى، فإن عملية الإصلاح الديني في القرن التاسع عشر في المنطقة العربية والإسلامية لم تحقق استمراريتها التي كان متوقعاً أن تنجز التراكم الكافي لانطلاق مراحل جديدة من أسئلة التقدم بدل أن نظل نراوح مكاننا حول الأسئلة ذاتها وإعادة إنتاج أجوبة سابقة بعينها. فبين المرحلتين حصلت قطيعة كبرى، أفقدت العقل الإصلاحي شرط الوصال، فكان أن حدثت النكسة في فلسفة الإصلاح ومضمونه بما انتهى إلى حرف المضمون النهضوي الإصلاحي الذي وسم مشروع النهضة العربية والإسلامية، ما جعل التوافق الذي عاشته النهضة العربية والإسلامية في عنفوانها يواجه نهايته السيئة[٣٤] .

والأشكال السلبية التي يولدها الفكر المادي الأوربي اليوم، من تحلل أخلاقي، وتهافت على المتعة البدنية، وتراجع البعد الروحي الوجداني، والفردية المفرطة التي تدفع الفرد إلى إهمال واجباته الاجتماعية، وتفكك الأسرة وانتشار الرذيلة، وهيمنة الدول الصناعية على مقدرات الدول

٣٤- إدريس هاني : الإصلاح الديني ، الآفاق والفاعلون ، ، دار النهضة ، (بيروت/٢٠٠٧م) ، ص١٨ .

النامية، والتفاوت الاقتصادي والسياسي المتزايد، وغيرها من الأزمات الاجتماعية، سببها عملية العقلنة الغربية التي حوّلت الدين والأخلاق إلى دوائر معرفية مستقلة عن الدوائر المعرفية والاجتماعية الأخرى، كالسياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس، وهذا الأمر لا يمكن بأي حال من الأحوال قبوله في المجتمعات الإسلامية، بل يجب رفضه والتحذير من نتائجه السلبية التي انعكست على أوربا، والتي سوف تقع على المجتمع الإسلامي إذا لم يتم التعامل معها بحذر شديد، يرافقه بناء سلم للمعرفة يرتكز على المنظور الإسلامي الذي يتوافق مع متطلبات الحياة العصرية دون المساس بالثوابت الفقهية والعقدية . وهذه سمة التجديد الذي ندعو إليه لتأكيد الهوية من خلال العمل ومواجهة التحديات، ((النهضة الأوربية مثلاً حين اتخذت العلمانية منظوراً لها، لم تكن هذه العلمانية إنكاراً للتراث، بل على النقيض تماماً أكدت التراث وعززت الولاء له من خلال رؤية أرحب وأكثر شمولاً وصدقاً من النظرة المحدودة المتزمتة التي فرضتها مؤسسة الكنيسة))[٣٥] .

إن التفسخ الاجتماعي والتحلل الأخلاقي الذي يطبع الحياة في المجتمعات الغربية ناجم عن فصل الأخلاق والقيم والتصورات العلوية – وفي مقدمتها الشعور بالمسؤولية أمام الله – عن التفكير السياسي والاقتصادي والاجتماعي والنفسي . فالاقتصادي في المجتمع الغربي اليوم يحكم على الفعل الاقتصادي بأنه ناجع طالما أدى إلى تحقيق ربح مادي، غير آبه بآثار هذا الفعل على المحيط الاجتماعي والبيئة الطبيعية، وغير مكترث فيما إذا نجم الربح عن ظلم أو استغلال .

٣٥- جلال شوقي : التراث والتاريخ ، ص١٤٠ .

يتجه الفكر الإسلامي المعاصر إلى اتخاذ موقف الناقد للحضارة الغربية ولا سيما من الدين، لكنه يفترق معه في ما عدا ذلك . ففي حين يمضي الفكر الغربي في تفكيك ما تبقى من الثوابت التي قامت عليها الحضارة الغربية الحديثة، يسعى الفكر الإصلاحي الإسلامي إلى تجاوز الزلات والانحرافات في التجربة الأوربية، والبناء على مواطن القوة فيها .

أما دعاة التغريب في في العالم الإسلامي فقد تبنى قسم منهم الدعوة إلى التجرد من العروبة والإسلام، ينقل المفكر الإسلامي (محمد عمارة) عن سلامة موسى وهو أحد دعاة الاقتباس من التجربة الغربية ما نصه : ((إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة، لأنها تقوم على أصل كاذب، فإن الرابطة الدينية وقاحة، فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعقد على الدين جامعة تربطنا، ونحن في حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان، وحكومة ديمقراطية برلمانية، كما هو الحال في أوربا))[٣٦] .

لا شك في أن الحضارة الغربية الحديثة وريثة في كثير من الجوانب للبناء الحضاري الإسلامي أبان عصر النهضة الإسلامية، وبالتالي للحضارة الإنسانية التي ساهمت في صياغتها ثقافات عديدة، لذلك فإن على الفكر الإسلامي أن يتعامل بثقة وهدوء مع النتاج الحضاري الغربي، يأخذ منه ما يأخذ ويرفض ما يرفض عبر منهجيات علمية نقدية، وبعيداً عن الجنوح العاطفي في اتجاه التراث، من هنا كان الرفض المبدئي لكل ما هو غربي أو موقف متطرف غير مقبول .

ويبدو جلياً أن المهمة الأولى الملقاة على عاتق الفكر الإسلامي المعاصر إعادة ربط الجانب الأخلاقي بالسلوك الفردي للإنسان، وهذه المهمة على

٣٣- محمد عمارة : أزمة الفكر الإسلامي المعاصر ، ص٤٨ .

بساطتها مهمة شاقة تتطلب جهوداً كبيرة ومثابرة مستمرة . لأن فك الارتباط بين الاثنين عملية معقدة استمرت قرون طويلة، ولعل الجهد الكبير المطلوب لتحقيق هذه المهمة هو ما يجعل عدد من المفكرين الإسلاميين يفضل تجاوز الفكر الغربي برمته، والبناء على القواعد التي أسسها الفكر الإسلامي والتراثي والحضارة الإسلامية التاريخية . بيد أن مثل هذا النكوص إلى عصور الازدهار الإسلامي التاريخي والانطلاق منها، وإن بدا للوهلة الأولى أكثر سهولة ويسراً، في حقيقته، ليس إلا سراباً خادعاً وهروباً مشيناً من العمل الجاد لتحمل المسؤولية التاريخية للأمة اليوم، ذلك أن الانسحاب إلى الماضي والشروع بالبناء انطلاقاً من مواقف الفكر والحضارة الإسلامية التاريخيين يفترض أن التجديد واقع منفك عن الخبرة الاجتماعية والثقافية للمجتمعات المسلمة، وأن هذه المجمعات تملك بالتالي الخيار في مواجهة التغريب أو تجنبه، هذا الافتراض ينطوي على وهم كاذب خادع . فلقد أصبح التجديد جزء من واقع المجتمعات المسلمة، وأن لا طريق لتجاوز مأزق التراجع الحضاري عند المسلمين إلا من خلال النقد البناء والحوار المنفتح والعمل الدؤوب لتبين ما هو إنساني عام، مما هو تاريخي لصيق بالمجتمع الإسلامي .

الخاتمة والاستنتاجات

بعد أن أكملنا هذا البحث لا بد أن نضع خاتمة نلخص بها أهم ما توصلنا إليه من نتائج، وهي الآتي :-

أولاً : مهما اتفقنا أو اختلفنا مع تحليلات المفكرين الإسلاميين ومواقفهم ودعواتهم الفكرية في موضوع التجديد، سواء بالاعتماد على الموروث الإسلامي، أو في الاقتباس من الآخر، سيظل التجديد يشكل ركيزة أساسية في تاريخ الفكر الإسلامي المعاصر فيما يتصل بتحرير النظر، وبسط القول في مختلف القضايا التي تأخذ أبعاداً معرفية وثقافية وتاريخية موضوعية، ومما يمكن الإشارة إليه هنا أن المسلمين يمكن أن يقدموا الكثير للإنسانية، وأن تجاربهم الماضية لا تشكل إدانة لهم، ما داموا متأكدين من امتلاكهم لدين عظيم لديه قدرة على إنتاج مجتمع آمن ومتناسق على الصعيد الداخلي، كما لديه القدرة على تقديم رسالة مماثلة على الصعيد العالمي .

ثانياً : إن مقولات الصراع الفكري بين التراث والتغريب أصبحت اليوم ذات دلالات مهمة، سواء في مقولات الصراع مع الغرب من أجل أسلمته، أو مقولات الانقياد له من أجل تغريب الإسلام وإخضاعه لمدنيته، كليهما يعبر عن العجز عن مواجهة فكرية حضارية لرؤية الغرب للإنسان والحضارة المعاصرة، في مقابل ذلك لم يقدم المفكرون المسلمون مشروعاً ناضجاً متكاملاً في رؤيتهم للتجديد في الفكر الإسلامي ، كذلك لم يتجاوز مشروع الاستغراب بعد مرحلة الأماني بعيداً عن التشكل المنهجي أو المعرفي، على اعتباره علماً مناظراً لعلوم الاستشراق واجتماعيات العالم الإسلامي التي وضعها العقل الغربي .

ثالثاً : من المعلوم أنّ الواقع المتغيِّر والحوادث المستجدة وسرعة التطور التي نعيشها بشكل يومي، تجعلنا في مواجهة دائمة ومباشرة مع ضرورة التجديد في الفكر الإسلامي وهذا لا يعني أنّ الضرورة تبيح لنا فتح الباب على مصراعيه أمام كل دعوة للتجديد أو كل منهج يهدف إلى التجديد، بل على العكس، فان تزايد تلك الأهمية تتناسب طرديا مع تزايد الحاجة إلى ضبط عملية التجديد وتقنينها بالطريقة التي تجعل من التجديد وسيلة تمكِّن الفكر الإسلامي من استيعاب كل مجالات الحياة، وتجعل الاجتهاد أداة لإخضاع الواقع للشريعة، وحينها لا يكون التجديد هدفا بذاته، بل وسيلة لبلوغ الغاية التي يحقق الدين من خلالها مقاصده وأهدافه .

رابعاً : من المعلوم إننا في حاجة إلى نهضة شاملة في مجال الفكر الإسلامي وتجديده، وهذا لا يتم إلا بثورة على الأوضاع التقليدية وتخليص العقلية الإسلامية والواقع الإسلامي من الجمود ؛ بحيث يتم بناء منظومة فكرية إسلامية على هدى الشريعة الإسلامية، يسخر لأجل ذلك علوم العصر وتقنياته، ولا يمكن أن تقوم هذه النهضة على غير منهج واضح وسبيل مرسوم، وهذا لا يتم بالدعوات العاطفية الفارغة أو بانفعال عام بالإسلام، أو بالاشتغال بالجزئيات دون النظر إلى مقاصد الدين الكلية، إذن، لا بد أن تقوم هذه النهضة على منهج أصول الفقه الذي ورثناه، وليس بالنزعة الإسلامية المحافظة والميالة نحو الضبط والتي جعلته ضيقاً، لا يفي بحاجتنا اليوم ولا يستوعب حركة الحياة المعاصرة .

خامساً : يرتبط التجديد ارتباطاً وثيقاً بالعقلانية، الأمر الذي يدعو إلى تنوير الفكر الإسلامي، والتحرر من الخرافات والتقاليد البالية، ويكون ذلك بتعلم أساليب التفكير العقلاني، والتذرع بالمبادئ الصحيحة السليمة حتى يتهيأ المجتمع لأداء واجبه على الوجه الأكمل، فيكون التجديد نعمة عليه،

ووسيلة لإنقاذه من أنواع الاستعباد السياسي والروحي الذي يحرص كثير من المغرضين على بقاءه وعدم زواله .

سادساً : سيظل منهج التجديد في مجال الفكر الإسلامي هو الأمل الذي لا خيار لنا في تجاوزه، لأن مجتمعاتنا تعيش حالة من السبات الفكري، وإنها تتطلع إلى مشاعل التجديد التي ستضيء ذلك الليل، وتطارد ظلامه الدامس، لكي يطل من خلف الأفق البعيد النور الخافت الذي يحمل في يديه بشرى عهد جديد، يتصدى فيه فكرنا الإسلامي لكل التحديات الفكرية المعاصرة . وإذا لم يتصدَّ علماؤنا – وهم رموز الحياة الفكرية في مجتمعاتنا المعاصرة – لتحمُل مسؤولياتهم في الإعراب عن آرائهم الفكرية، في القضايا المطروحة على مجتمعنا، فإنه من المؤكد أن عصر التراجع والتخلف سيمتد وسيطول، وسيبحث مجتمعنا بعد أن يفقد أمله عن البدائل الفكرية المتزاحمة التي نراها في كل يوم وهي بدائل لن تسهم في رقي مجتمعنا، ولا في ازدهار فكره، لأن الفكر الدخيل ليس كالفكر الأصيل في قدراته على مخاطبة المجتمع، وعلى تلمُّس مشاكلنا .

سابعاً:– ولما كان العديد من المفكرين المسلمين قد تأثر بحضارة الغرب وحاول إسقاط مفاهيم التحديث على أنموذج التجديد في الفكر الإسلامي فإنه يمكن تحويل قناعات هؤلاء، وذلك بانتقاد الأسس المعرفية للحضارة الغربية نقداً علمياً رصيناً محكماً، وإظهار الصورة الصحيحة للمنهج الإسلامي في تصويب الخطأ ونقده مهما كان مصدره، والأكثر من ذلك تصويب مجمل الأطروحات الغربية التي تشكل الخلفية الفكرية لأولئك المستغربين، بشكل علمي موضوعي بعيداً عن التعميم والتعصب، وردة الفعل العاطفية غير المتوازنة المصحوبة دائماً بالأحكام الشرعية التكفيرية، أو التبديعية، أو التفسيقية .

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- أولاً: المصادر الأولية .

• ابن حنبل، أبو عبدالله محمد بن محمد .

١- مسند الإمام احمد بن حنبل، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، (بيروت/٢٠٠١م) .

• أبو داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني .

٢- سنن أبو داود، تحقيق : محمد محي الدين حميد، دار الفكر، (بيروت/د.ت) .

• الرازي، محمد بن أبي بكر .

٣- مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، ط١، (بيروت/١٩٦٧م) .

• المقري، أحمد بن علي .

٤- المصباح المنير، دار الفكر، (بيروت/١٩٨٦م) .

• المناوي، محمد بن عبد الرؤوف .

٥- فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار الكتب العلمية، ط١، (بيروت/١٩٩٤م) .

ثانياً : المراجع الثانوية :

• بسطامي محمد سعيد .

١- مفهوم تجديد الدين، لا. مط، (د.ب/د.ت) .

• جمال سلطان .

٢- جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث، مركز الدراسات الإسلامية، ط١، (برمنجهام/١٩٩١م) .

- حسن الترابي .

٢- تجديد الفكر الإسلامي، دار القرافي، ط١، (المغرب/١٩٩٣م) .

- خالد محمد خالد : من هنا نبدأ، مطبعة الخانجي، (القاهرة/١٩٨٥م) .
- عبد الكريم زيدان .

٣- نظرية التجديد في الفكر الإسلامي، لا. مط، (د.ب/د.ت) .

- عدنان محمد أمامه .

٤- التجديد في الفكر الإسلامي، دار ابن الجوزي، ط١، (الدمام/١٤٢٤هـ) .

- علال الفاسي .

٥- التيارات الأيدلوجية في العالم العربي، إعداد : عبد العلي الودغيري، مطبعة النجاح، ط١، (الدار البيضاء/٢٠٠٠م) .

- فتحي عثمان .

٦- الفكر الإسلامي والتطور، دار المعرفة، (القاهرة/١٩٨٦م) .

- محمد عمارة .

٧- معالم المنهج الإسلامي، مطبعة الرشاد، ط٣، (القاهرة/١٩٩٨م) .

٨- أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، دار الشرق الأوسط، (القاهرة/١٩٩٠م) .

- محمد الغزالي .

٩- ليس من الإسلام، دار القلم، ط١، (بيروت/١٩٩٧م) .

- منير شفيق :

١٠ -الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات، دار القلم، ط١، (الكويت/١٩٨٦م) .

ثالثاً : الدوريات .

١- حسن الجيلاني : الإبداع بين الدين والسلطة، بحث منشور في مجلة الفكر العربي، إصدار معهد الإنماء العربي، العدد (٨٨)، السنة / ١٩٩٧م.

٢- سعيد شبار : الاجتهاد والتجديد وأصول الفقه في فكرنا، بحث منشور في كتاب الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، ط١، (المغرب/٢٠١٣م) .

٣- محمد مراح : مفهوم التجديد في الفكر الإسلامي، بحث منشور في مجلة القافلة، العدد (٣)، مجلد (٤٨)، السنة/ ١٩٩٩م .